قصة مصرية

عاشق الأوهام

بقلم :
ميشيل تكلا

« ... فخير له اذن ان يعود الى ميدان القتال فهو ميدان أشرف وافضل من ذلك الميدان الذي لا يتقيد بلائحة او قانون ... »

كان القطار يشق طريقه نحو العاصمة الثانيه للقطر المصري ، وقد قبع في ركن من اركانه شاب قوى البنية ، وسيم الطلعة ، ذهبي الشعر ، تدل ملامحه على انه قد امضى وقتا طويلا في ميدان القتال ، فلفحه هواء البحر ، وصقلته التجربة وصهرته المعارك الحامية ، فخلقت منه رجلا مكتمل الرجولة ، صارم الرأي ، قوى الارادة . ولكنه وقد اطلق لنفسه عنان الافكار كان يبدو للناظرين مهموما يغالب قلقا نفسانيا عنيفاً . فتراه قد سبح في بحر هائج الامواج لاتقف له على مدى اونهاية . او قد قفز في شراع تتناوله امواج عاتية تعبث به فلا ترحمه وتطوح به ذات اليمين وذات اليسار ، فيرى معبودته في كل حركة من حركات القدر الساخر ، وهي تغيب عنه وتنأى رويداً رويداً حتى تتلاشى من امامه لترتمي في احضان انسان آخر .. هل هذه حبيبته سوسن ؟ انها هي بعينها . انها سوسن بدمها ولحمها .. سوسن رفيقة صباه ، ومعشوقته . وقاهرة قلبه هاهي قد تنصلت من وعودها ، وضربته ضربتها الاخيرة ، وطوحت بآماله وأمانيه الى عالم الفناء عندما علمت انه عائد اليها اليوم . وما كان اقدرها واقساها ان تسبق فترسل اليه رسالة اخيرة تقول فيها « عزيزي رأفت .. في طريقي انسان آخر . » فيستشيط المسكين

غضباً ، ويتدفق الدم في غزارة إلى رأسه الصلب ، وتتمتم شفتاه بكلمات يشكر فيها الأبالسة ويكيل لهم المدح والثناء لانهم صوروها له وجسموها امامه وهي ترتمي كالضريعة وتتلوى كالرقطاء تحت اقدام ذلك الغريم القوي العملاق .

« اهكذا ياسوسن ؟ . رحماك ربي . ما اقدر كن ايتها النساء !! »

وتنبه الشاب الوسيم على حركة عجوز جالس بجواره ، وقد لمح الاخير مراجل الغضب تكوى ضلوع ذلك الصغير المعذب فاشفق عليه وبادره بالسؤال — اظنك ستتزوج حال وصولك يابني ؟ اعائد انت من معركة فلسطين ؟ هكذا تدل ملامحك . ولا شك ان حبيبتك في انتظارك ؟

فاجابه الضابط رأفت بافتعال وغيظ — لا ياسيدي .. ليس احد بانتظاري ! .

ولم يشأ الشيخ ان يتابع سؤاله بسؤال آخر ، بل آثر الصمت حتى اذا ما لاحت في الافق البعيد قريته الصغيرة تأهب لمغادرة القطار ثم حيا الضابط الثائر المتأثر بابتسامة رقيقة وذهب ...

وتربع رأفت على مقعده وما لبث ان ترادفت الى اذنه ضربات عجلات القطار وهي تقول معه في نغمة حزينة باكية . لا .. لا .. ليس الان .. وتكرر نفس كلما طوى القطار الارض وغاب في بطن الوادي ،

ولما ضاقت به سبل التفكير ، واكتوى نار الالم ، عبث باصابعه في جيب سترته فاخرج قصاصة ورق واخذ يقرأ ما عليها رغم انه كان قد حفظ كلماتها عن ظهر قلب . انها رسالة وصلته اخيراً من حبيبته سوسن وهاهي الذاكرة تعود به لتذكره بتلك اللحظة التاريخية

التي لن ينساها. فقد انقطعت عنه اخبارها عاما با كمله .وجاءه في يوم عودته الى الوطن خطاب سوسن فكان قبل ان يفضه البلسم الشافي والدواء الناجع لأوهامه واحلامه . ولكنه ماكاد يقف على ما فيه من اخبار حتى كادت روحه تفيض معه .

كان ينتظرها كما وعدته هي ان تنتظره . لقد اتفقا على هذا قبل مغادرته مصر . فماذا يكون من امرهما الآن ولكنه اصبح يرى بعين الحقيقة الاشياء وقد تبدلت وتغيرت في غفلة من الزمان . انه الآن على مقربة من قريتها . وهاهو قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه كلما اقترب القطار من الاسكندرية . هل ياترى لاتزال هناك بقية ممن امل . انه يكاد يعشق الاوهام بعد ان سيطرت عليه ولعبت برأسه الجبار فخر امامها صريعا لا يبدي حراكا ؟ !

اخذ رأفت يتفرس في الخطاب مرة بعد مرة. فيراه قصيراً على غير عادة سوسن في كتابتها له . ولكنه قد يلتمس لها العذر ، فيبدأ آخر الامر ، ولا يلبث ان يتنقل في تفكيره كالطائر الحائر ،ماذا يكون شعور سوسن وقد رجع اليها فجأة . انها مفاجأة سيقفز لها قلبها من غير شك . ولكن من يدريه . اكانت صادقة معه ؟ لاشك ان المدينة ببهارجها وزخارفها قد أثرت عليها ، وهل ياترى غزا قلبها رجل آخر بعد ان انقطعت عنها اخباره واصبح تائها أو مفقودا في ارض الاعداء .

وتقاذفت به امواج الفكر من جديد ،وغلت مراجل الدم فيه ، فقام من مقعده واخذ ينظر من نافذة القطار على المروج الخضراء كأنه يحاول ان يطوح بتلك الافكار عبر الخضرة ، ولكنه ما كاد يحاول حتى انتابته عاصفة جارفة اقسى واقوى من الاولى ، فعاد الى مقعده واخرج رسالة سوسن وراح يقرأ :

« عزيزي »

« يؤسفني انني لن اكون في انتظارك حال عودتك الى الى الوطن ، وقد كلفت امي ان تقوم بهذه المهمة بدلا مني . وسأشرح لك الاسباب فيما بعد ، فهناك انسان آخر ياحبيبي في طريقه الي . هذه هي ثمرات الحرب ! !

اظنك ستفهم ، وارجو ان أراك قبل سفرك .

حبيبتك « سوسن »

اذن فهناك انسان آخر . فخير له اذن ان يعود الى ميدان القتال . فهو ميدان اشرف وافضل من ذلك الميدان الذي لايتقيد بلائحة او قانون .

وفجأة تذكر رأفت عمته « فاطمة » انها امرأة طيبة ذات قلب كبير ، فقد كفلته بعد ممات ابيه وساعدته مساعدة لن ينساها ، وخدمته خدمة ادبية كبيرة اذ استطاعت بنفوذها ان ترسل رسائله الى امهات الصحف المصرية لتنشر اوصافه لمعارك فلسطين الدامية. فلاقت رسائله الاعجاب من جمهور المدنيين والعسكريين على السواء ، اذن فهناك بصيص من امل وهناك عمة طيبة القلب قد تمهد له السبيل الى المجد وقرر رأفت بعد تفكير منظم أن يعود الى قريته ويعيش مع عمته ثم يتجه الاتجاه الذي يراه صالحا له فهذا خير حل للمأساة التي تنتظره .. وعلى الاثر ابرق الى عمته ينبؤها بوصوله. ثم بعث ببرقية اخرى الى أم سوسن يخبرها بميعاد وصوله ،اذ فضل أن يعرف الحقيقة مباشرة فهذا انسب حل للموضوع . ثم عاد يتصفح مجلة كانت معه ليطرد سيل افكاره التي تراوده ، ولكنه ما لبث أن عاد الى حبيبته يتذكر كلماتها القديمة . احبك يا رأفت ! كان ذلك ليلة تخرجها في حفل المدرسة البهيج ، وقد انفرد بها في احدى الشرفات يهنؤها ثم يغازلها بكلماته الحلوة تحت ضوء القمر وفي هواء الليل الساحر . ولكنه يشعر الآن بتراخ وخيبة امل كلما تذكر حادث حبه ، أو كلما تذكر تلك الليلة التي ودعها فيها على نوع خاص . الا لعنة الله على الذكريات انها لا تزال تلاحقه . ها هو يتذكر من جديد ليالي الصيف وايامه الحلوة عندما كانا ينزلان البحر معا يلعبان ويلهوان بالامواج ورمال الشاطىء . فاذا انتهى الصيف خطبها لنفسه . واخفى الخبر عن عمته ، فاذا اندلعت نيران الحرب في فلسطين كان اول المتطوعين في سبيل الانسانية والكرامة . ثم يعود فيذكر ليلة الوداع فيراها وهي تحاول أن تتحكم في عواطفها

فلا تدع مجالا لدموعها لتنفث فيه نفثات الشجاعة والاقدام فاحبها في ذلك اليوم حبـا جنونيا ، وعلى الاخص عندما همست في اذنه وهي تودعه . . سأكون هنا ، وفي هـذا المكان عندما تعود . سأنتظرك . . ولو طال بي الزمن !! .

اما الآن فهناك رجل آخر .. يالسخرية الاقدار ! !

* * *

واخيرا وقف القطار في محطة [سيدي جابر] وقفز منه رأفت وخواطره لا تزال مشتتة لا يعرف كيف يجمع أشلاءها وقف الشاب وفي يده حقيبته واخذ يتفرس في وجوه الواقفين ، ولكن احدا لم يظهر بعد فسار مطأطىء الرأس حاسر النفس ، ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى ابرقت عيناه فجأة . انه يراها قادمة نحوه .. من . سوسن ؟ ! انه لا يكاد يصدق عينيه .. انها سوسن بدمها ولحمها .. [لا .. لا .. انه شبح سوسن ..] كيف يكون ذلك . . ألم تقل انها في احضان رجل آخر ..

ها هي تقفز نحوه قفزات الظبي الطروب .. فوقف صاحبنا فجأة ، وقد سمرت قدماه . ووقفت هي على بعد خطوات منه وهي تصرخ في غمرة الفرح . . رأفت ! رأفت ! . .

والتقت عيناه الساهدتان بعينيها الحالمتين . .

— غريب يا رأفت كيف تبرق لأمي . . لقد سافرت الى القاهرة وكنت اظنك جريحا ولكني اراك سليما معافى . ما لك واجم . . حدثني ماذا هناك ؟

— دعينا نخرج من هنا أولا . .

قالها في غلظة وجفوة وتأبط ذراعها في ثقل وسار واياها على مهل . وسارت هي الى جانبه وقد انسدل شعرها الذهبي الجميل على كتفيها وتناثرت شعيرات منه على كتفه في دلال وتهافت ولكن عينيهـا الزرقاوين كانتا مملوءتين بالقلق والاضطراب . .

واخيرا همست في اذنه تقول — هذه عربتي في انتظارك فهيا اليها .

وجلس كلاهما في مقعد السيارة الامامي في صمت ورهبة ثم تنهد رأفت طويلا وقال :

— علينا أن نصفي الموضوع في التو واللحظة . .

— ولـكن يا عزيزي !

ثم اخرج خطابهـا الازرق وقال — ماذا تقولين عن هذا الآن !

وتناولت سوسن الرسالة ورأسها يكاد يدور والقت عليها نظرة سريعة ثم اعادتها والدموع تنهمر من عينيها والتفتت اليه وقالت

— انك غبي . . غبي يا عزيزي !

وشعر رأفت بحرارة الشمس وهي تنفذ الى قلبه ، ثم ارهف اذنيه ينصت الى ما تقول

ـ انه سوء تفاهم يا عزيزي . . لقد وضعت رسالتك خطأ في خطاب ارسلته الى اخي في نفس الوقت الذي كتبت لك فيه . وتشاء الصدف أن تحضرا في يوم واحد . وقد ذهبت أمس الى القاهرة لاستقباله والعودة به الينا . . و

ونظر رأفت اليها طويلا ودموع الفرح تتساقط على وجهه الشاحب ثم ما لبث أن احتواها بين ذراعيه في غمرة سعادته وطبع على شفتيها قبلة حبها الخالد . . .

القاهرة ميشيل تكلا

اقدمها الى تلميذي

نصيحة

عصرت روحي فارتشف من ذوبه ماراق لك
الغار والأزهار والأ طيار حيث منزلك
زاهيـة شادية أنظر بهـا مستقبلك
أصغ الى انغامهـا لا تتبع من ضللك
خذ من طموحي شعلة واسلك بها حيث سلك
سبيلك المجد الذي غرست ، فاقطف أملك
إصعد على كتفي أصل بـك الى أقصى فلك
لا ترهب النار ، أنا أصلى لظاهـا بدلك
وإن ذويت لا تقل مسكين من إجلي هلك !
لو لم أذب محترقاً من ذا يضيء سبلك ؟ !

بغداد : محمد النقدي